الحب في العلاقات الزوجية بالعائلة المغربية خلال العصر الوسيط: مساهمة في دراسة تاريخ المشاعر الإنسانية (ق5-6هـ/11-12م)

أ.د إبراهيم القادري بوتشيش*

"والمتعارف فيما يوسع النساء به على أزواجهن من أموالهن، إنما يردن بذلك استجلاب مودقم واستدرار صحبتهم وجميل عشرقم)). نوازل ابن الحاج (القرن 6هـ/12م)، ص5.

يعتبر موضوع الحب من المواضيع التي جرى التكتم حولها في الإسطوغرافية العربية الوسيطية، لأن المؤرخين اهتموا أصلا بالمجال السياسي، ولم يكتبوا عن تاريخ المشاعر والأحاسيس العاطفية إلا نادرا، وبكيفية عفوية وردت على شكل شذرات متفرقة في ثنايا كتاباتهم. ونظرا لما يكتسيه موضوع الحب من طابع الفردية والسرية في القيم الاجتماعية السائدة، فإنه اعتبر "شأنا شخصيا" جعل المؤرخين ينأون بأنفسهم عن التأريخ له.

ويزداد الأمر تعقيدا كل ما رام الباحث دراسة الحب في العلاقات الزوجية، لأن هذه الظاهرة التي تندرج في مجال الدراسات الاجتماعية المتعلقة بالأسرة، لم تحظ باهتمامات المؤرخين أيضا، بما في ذلك ابن خلدون مؤسس علم العمران الاجتماعي. لذلك يجد الباحث في التاريخ العربي- الإسلامي الوسيط نفسه مجبرا على النبش في متون نصية لا تنتمي إلى حقل التاريخ، بل إلى ألوان أخرى من التراث العربي من قبيل ألف ليلة وليلة، ونصوص المقامات والسير الشعبية كسيرة عنترة بن شداد، والمقتطفات الهامة التي يحويها كتاب "في العشق والنساء" للجاحظ، وكتاب "الزهرة" لابن داود الأصفهاني، ونصوص ابن سينا وداود الأنطاكي وغيرهم من فرسان التراث العربي[1]، أما بالنسبة للغرب الإسلامي فإن أحسن من صنف في الحب هو الفقيه ابن حزم الذي اختزل عصارة فكره حول هذا الموضوع في كتاب "طوق الحمامة في الألفة والآلف"، وهو كتاب يتوزع بين ثلاثين فرعا وبابا عالج فيه أصول الحب كحالة نفسية وجسدية، وحلل فيه بدقة وبراعة صفة الحب ومعانيه، حتى أن دارسا معاصرا اعتبره "أروع

* - أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي- جامعة مولاي إسماعيل - مكناس - المغرب.

كتاب درس الحب في العصر الوسيط في الشرق والغرب"[2]، بل إن أحد المستشرقين نشر إحصائية تبين أن اسمه تردد في أكثر من ستة آلاف كتاب تعالج موضوع الحب والغرام[3]. ومع ذلك، وإذا استثنينا هذا الكتاب مع بعض النصوص الشعرية والأدبية النادرة، فإن المادة المستقاة من الحوليات التاريخية تعد هزيلة ولا تشبع نهم المؤرخ. لذلك تصبح الحاجة ماسة إلى نصوص غير مباشرة تتوزع بين مصنفات كتب النوازل والفتاوى المغربية، والأمثال الشعبية وكتب التراجم والطبقات، فضلا عن النصوص الجغرافية والرحلية، ناهيك عن بعض الشذرات التي تجود بها الحوليات التاريخية ولو في شكل إيماءات محتشمة.

تشكل هذه النصوص الدفينة إذن ثقوبا يمكن من خلالها إماطة اللثام عن ظاهرة الحب في العلاقات الزوجية بالعائلة المغربية خلال العصر الوسيط، في الفترة الممتدة من منتصف القرن 11 حتى منتصف القرن 12م، ومن خلالها سنسعى للإجابة عن عدد من التساؤلات التي يطرحها موضوع خطير كالحب.

الحب وجمال المرأة المغربية: ما هي المواصفات الأنثوية التي كانت تسيل لعاب الرجل المغربي، وتجعله يعشق المرأة إلى حد الإقبال على الزواج بها وجعلها رفيقة دربه ؟

يستشف من نصوص الفترة مدار الدراسة أن مواصفات الجمال التي تجعل قلب الرجل منجذبا لشريكة حياته قد اختلفت حسب المستوى الثقافي لفئات الناس؛ فالحضرمي[4] قاضي المرابطين في الصحراء المغربية، والذي يمثل فئة النخبة العالمة، نصح في عملية جس نبض جمال الزوجة عند الاختيار واتخاذ قرار الزواج، توفرها على ثلاث خصال تعكس "الجمال الروحي" وهي: طيبة الأصل وحسن الخلق وكمال الدين. وهو وإن لم يشر إلى الحب في هذه المعايير المثالية، فإنه كان بحكمته يحيل على المرتكزات الضرورية التي تؤثث "للحب المعمّر" القادر على الدوام والاستمرارية؛ لذلك فضل البعض مصاهرة العائلات الطيبة المنبت، الأصيلة المحتد[5]، بينما فضل البعض الآخر "جمال العلم" فتنافسوا في الظفر بالمرأة العالمة النبيهة الذكية[6]، في حين مال العوام إلى "الجمال الظاهري" فعشقوا المرأة الجميلة البدينة الشقراء[7]، ونفروا من القصيرة القامة[8]. ورغم أن ابن قزمان- وهو أحد زجالي القرن 6 هـ/12م- حذر من الانخداع بجمال الفتاة الظاهري والانسياق وراء المظاهر التي تؤدي إلى السقوط في فخ حب أعمى[9]، فقد ظل الجمال الظاهري يسيل لعاب الرجال عامتهم وعلمائهم، ولاغرو فإن عبد الله بن ياسين الزعيم الديني لدولة المرابطين "كان لا يسمع بامرأة جميلة إلا خطبها"[10]، وهو نص يعكس في حد ذاته

العلاقة بين الجاه السياسي والحب والزواج الذي من شأنه أن يكثر نسل العائلة، علما أن كثرة العدد في المجتمع القبلي كان عنوانا للتفوق والجاه، خاصة عند النخب السياسية.

وبالمثل، كان "جمال التواصل" القائم على حسن الآداب والسلوك عند المرأة، والحوار المهذب واللبق من بين المعايير التي تستقطب الرجال، ونسوق في هذا الصدد نموذج الحب المتوهج بين الأمير يوسف بن تاشفين وزوجته زينب النفزاوية، تلك المرأة الليبية التي كانت تشد أزر زوجها في لحظات الشدة بحكمتها وحسن تواصلها مع زوجها، وقد سجل لنا ابن عذاري نص الحوار الذي جرى بين الزوجين عندما عاد ابن عمه أبو بكر بن عمر من الصحراء ليتسلم منه السلطة، وكان قد أنابه عنه في حكم المغرب في انتظار قضائه على تمرد قبلي اندلع بالسودان، وحدث آنذاك أن تزوج بزينب كما هو مجمع عليه في كل المرويات التاريخية، لذلك نرى ضرورة إيراد نص الحوار بحرفيته لما له من أهمية في إبراز جمالية التواصل بين الزوجين:

فبعد أن لاحظت زينب النفزاوية ما اعترى زوجها يوسف بن تاشفين من حزن بعد سماع خبر عودة ابن عمه ومطالبته بتسليم السلطة له، خاطبته بقولها:

- "أراك مهموما مكروبا من وصول ابن عمك إلى ملكه الذي ولاك عليه، والله لا ذاق أبو بكر طعمها أبدا، فطب نفسا وقرّ عينا".

- "إن استخلافه إلي من بين كل بنيه ويثق علي في هذه المملكة، ولو كان غير ابن عمي لقاتلته".

- "أنا أدلك....والله..."

- "ما ذلك يا زينب ؟ والله أعرفك ميمونة...."

- "إذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله إليك فلا تخرج إليه، ولكن بادره بهدية جليلة... وتفوز بملكك إن شاء الله".

- "والله لا خالفت في أمر تشيرين به أبدا"[11].

إن مثل هذا النمط الحواري الذي يحتاجه الرجال في ساعات الشدة، كان من المواصفات التي تجعل المرأة تظفر بقلب الرجل، وتعمل في اتجاه انتعاش الحب بين الزوجين، وفي بناء جدار قوي من المحبة المتبادلة، لذلك لا عجب أن تملك زينب النفزاوية بهذا "الجمال التواصلي" قلب الأمير يوسف بن تاشفين، ولا غرو فقد أصبحت- حسب كلمات ابن عذاري "أحب ما لديه"[12].

والواقع أن زينب النفزاوية تعد المرأة النموذجية التي كان بالإمكان أن تستقطب حب أي رجل، لأنها جمعت بين جميع أجناس الجمال، فاشتملت على الفطنة والعقل والذكاء ولباقة التصرف، إلى جانب الثراء والزعامة السياسية، لذلك وصفها ابن خلدون بأنها "كانت مشهورة بالجمال والرياسة"[13].

تلك إذن بعض المواصفات الجمالية التي كانت تفرز حب الرجل للمرأة في المجتمع المغربي، وقد تراوحت بين الجمال الروحي والفيزيلوجي وجمال التواصل، فكيف كانت تتشكل البدايات الأولى لهذا الحب، خاصة في مرحلة الخطوبة ؟

الحب في مرحلة الخطوبة: من المتعارف عليه أن الخطوبة رمز رومانسي، ودليل على بداية انجذابات عاطفية، بيد أنه في مجتمع محافظ كالمجتمع المغربي في العصر الوسيط، لم تكن فكرة التعارف السابق على الزواج مقبولة، إن لم تكن مرفوضة بالمرة . وللأسف فإن اضمحلال شعر الغزل في العصر المرابطي- الموحدي الذي يتوافق مع مرحلة موضوع الدراسة، لا يسمح برصد ما إذا كان الارتباط الأولي يتم عن طريق الحب، وما هي تعبيرات هذا الحب ؛ وحتى إن افترضنا وجوده، فقد ظل في معظم الحالات متستروا بسبب القيود الاجتماعية، ولم تستطع المرأة أن تجهر بحبها أو تتصرف بمقتضاه خوفا من أعين الرقباء.

والنصوص المتوفرة غالبا ما تقفز عن تناول موضوع الحب الذي يجمع الشريكين في هذه المرحلة الباكرة من علاقات الارتباط الزوجي، مخلفة بذلك حلقة مفقودة وأساسية في إلقاء الضوء على مرحلة لا يمكن إلا وصفها بأنها مرحلة "عسل الحب" الذي يتوافق مع هذه الفترة الباكرة من الزواج . بيد أن كتب النوازل وغيرها توفر بعض المؤشرات المحملة بالدلالات حول البدايات الأولى للحب الزوجي في مرحلة الخطوبة، موحية بحصول نوع من الرضا العاطفي أحيانا، فتتم الخطوبة كنتيجة حتمية لهذا التوافق العاطفي الأولي. ويترجم الرجل هذا الحب بتكليف إحدى الخاطبات مهمة الاتصال بالمرأة التي عشقها، بينما يقوم بهذا الدور أحيانا أحد الأصدقاء[14]، وقد كانت الخطوبة التي تعني ملكية قلب طرف لقلب الطرف الأخر تتم عادة في يوم الجمعة، وهو يوم يحتل مكانة متميزة في مخيال المجتمع المغربي، لذلك تم تفضيله عن سائر الأيام الأخرى لإقامة هذه المناسبة[15]، لما يحمله من رموز دينية وقدسية، ويتوخى الشريكان من اختياره بداية طيبة لعلاقتهما العاطفية وربطها بالمقدس، التماسا للبركة والاستمرارية والوفاء. وبما أن الخطوبة هي إعلان رسمي عن ارتباط الرجل بالمرأة، فإن منزل عائلة هذه الأخيرة يكون

المكان الملائم لهذا الإعلان . وإذا لم يكن لها ولي، يتوجه إليها شاهدان ويعرضان عليها أمر "فارس أحلامها"، فإن سكتت، عد ذلك رضى وقبولا من جانبها فتتم الخطوبة[16].

وفي الغالب الأعم، كانت المرأة تتقبل عن طيب خاطر كل من تقدم لخطبتها، وتعتبر هذه المبادرة اعترافا مبدئيا وإشارة واضحة إلى ما يكنه لها الرجل من حب وإعجاب، حتى ولو بقي هذا الحب في مستوى الحب الأحادي الجانب، فأمنية المرأة تكمن في الحصول على زوج ولو لم تكن تضمر له قيد أنملة من الحب، إلا أن نصوص الفترة مدار البحث سجلت حالتين خرجتا عن هذه القاعدة:

فقد ذكر ابن الأبار[17] في ترجمته للشاعرة نزهون بنت القليعي أنها رفضت خطوبة رجل قبيح الوجه جاء يطلب يدها، مما يعني أن الحب في العلاقات الزوجية استند في مرجعية بعض النساء على الجمال الفيزيولوجي للرجل، وأن الجمال الرجولي كان أيضا من مطالب المرأة في علاقات الحب التي تجمعها بالزوج.

ونستطيع من خلال الأدلة والاستشهادات، التأكيد على أن المال لم يكن دائما يقوم مقام الحب الذي تطلبه المرأة من الرجل، فثمة نازلة فقهية أجاب عنها البرزلي نقلا عن ابن الحاج، تتعلق بمحاولة إكراه فتاة على الارتباط برجل ثري لم تكن تحمل له أي شحنة عاطفية، وهو ما تعكسه النازلة التالية: "رجل له جاه وقدرة، خطب ابنة رجل فأعطاها له بعد إباية، ودخل بها الزوج، وفعل ما أدى إلى عقوق الإبنة لأبيها[18]؛ فالعقوق هنا تعبير صريح ومكشوف ينهض دليلا على رفض الفتاة تأسيس خيمة زوجية دون أوتاد الحب.

بيد أن الحب كشرط أساسي في بداية تكون العلاقات الزوجية لم يكن هو المهيمن في عقلية المجتمع المغربي، بل كانت الكفاءة في توفير رزق الأسرة وتحمل المسؤولية طريقا يقود إلى الحب والاستقرار، لذلك فإن أقصى ما كان يشترط في الرجل الذي يزمع الارتباط بامرأة هو توفره على صنعة يضمن بها القدرة على إدارة وتسيير شؤون الأسرة، وهو ما نستشفه من رواية مفادها أنه عندما بعث فخر الدولة بن المعتمد بن عباد أحد الوزراء ليخطب له امرأة، أقسم لها أبوها بالإيمان المغلظة أنه لن يزوجها "إلا لمن له صناعة يستر حاله وحالها بها"[19]، فموضوع الزواج والحب لم يتم تداوله بمعزل عن "تأمين العيش" للزوجين.

هل كان الحب أساس الزواج بمغرب العصر الوسيط؟ إن السؤال الجوهري الذي يسعى الباحث إلى النبش فيه من خلال المصادر هو ما إذا كان رباط الزوجية يتم في القرون الوسطى المغربية باختيار المرأة وحبها لشريك حياتها، أم أن التدخل العائلي كان أمرا لا مفرّ منه؟

تؤكد معظم النصوص أن الحب لم يشكل إلا ظلا هامشيا في مشروع الزواج بمغرب العصر الوسيط مقابل هيمنة عامل القرابة والانتماء القبلي، ذلك أن الأب أو الولي كان له اليد الطولى في تزويج ابنته دون مراعاة خزانها العاطفي تجاه من ستقاسمه سقف بيت الزوجية[20]؛ بل حتى الرجل لم يكن يملك أحيانا نعمة الحب كمفتاح لدخول بيت الزوجية؛ فيوسف بن تاشفين زوّج علي المسوفي "بامرأة من أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها"[21]، كما أن علي بن يوسف عقد لأخته من أحد أبناء عمومته[22]، ويكشف النصان معا أهمية معيار القرابة في تدخل الأسرة لاختيار الزوج أو الزوجة بعيدا عن الحب والعاطفة، وفي رواية أخرى، ورد أنه بعد سقوط إشبيلية في يد المرابطين، سبيت إحدى بنات المعتمد بن عباد، فاشتراها أحد التجار، ثم وهبها لابنه، فلما أراد هذا الأخير الدخول بها خاطبته بقوله: "لا أحل لك إلا بعقد زواج شرعي إن رضي أبي بذلك"[23]، ولم تتزوجه إلا بعد موافقة المعتمد بن عباد وهو في منفاه بأغمات، بل ثمة من النصوص ما يشير إلى عدم معرفة المرأة بالرجل الذي عقد عليها؛ فقد وردت على ابن رشد الجد نازلة حول رجل غاب عن زوجته، فزوجها والدها برجل آخر دون علمها، رغم عودة الزوج الأول[24]، وثمة ما يشير إلى أن بعض الآباء عقدوا لبناتهن على الزواج حتى قبل بلوغهن، أي قبل بداية إحساسهن بمشاعر الحب، فقد جاء في كتاب "نوازل ابن الحاج" مسألة حول "رجل كاتب، له ابنة من ثمانية أعوام، فخطبت إليه، فأبى عن زواجها لصغرها، ثم إنه حشم فيها، وهون عليه الأمر فزوجها على أن يدخل بها الزوج إلى اقتضاء أربعة أعوام"[25]، معنى ذلك أن الزواج في مثل هذه الحالات ارتبط بالإنجاب وتكوين أسرة أكثر مما ارتبط بالحب، وإذا ما سعت المرأة إلى تحدي تدخل سلطة العائلة المتمثلة في الأب أو الولي لتحقيق رغباتها العاطفية، فإنها تتعرض للعقاب الذي قد يصل إلى حد السجن؛ وحسبنا أن إحدى النساء قد ألقي بها في السجن لأنها تزوجت بغير إذن وليها[26]، أي أن ذنبها يكمن في تحديها سلطة الولي للزواج بالرجل الذي كانت تهواه، أما ظاهرة التسرّي بالإماء التي شاعت في أوساط طبقة الأعيان والفئات الموسرة، فإنها تعبير عن تجاوز الرغبة العاطفية إلى الرغبة في الإشباع الجنسي، بعيدا عن

أي تجل من تجليات الحب، لأن المرأة في هذه الحالة- حالة الرق والتسري- اعتبرت في الغالب الأعم، مجرد سلعة للاستهلاك الجنسي بمعزل عن أي شحنة عاطفية[27].

ويفهم من خلال النصوص والاستشهادات السالفة الذكر- ودون تعميم الحكم- أن قبول المرأة للزوج كان يتم بمعزل عن الحب الذي اعتبر شأنا عائليا أكثر منه شأنا فرديا، فأسرة البنت ووالدها على الخصوص، هو الذي كان يتكلف بترتيب أمور زواجها في ضوء مصالحه الخاصة، دون مراعاة لجانبها العاطفي، مما يشكل اضطهادا عاطفيا وقيودا قاسية طالت حق المرأة في الزواج بالرجل الذي تحب.

وقد تمخض عن هذا الزواج الذي كان يتم تحت سيف الإكراه ودون الاستظلال بظل الحب أحيانا، ردود فعل عنيفة كما هو الحال بالنسبة لفتاة ورد في نازلة أنها أرغمت على الاقتران برجل يكبرها سنا، ولم تكن تكنّ له أي ذرة من الحب، مما أدى إلى هروبها[28]، بل إن فتاة أخرى ذهبت إلى حد إزالة بكارتها بيدها كوسيلة لإبعاد وصرف الزوج الذي لم تكن تشعر بأدنى ذرة من الحب تجاهه[29]، وفي حالات أخرى، تم اللجوء إلى الزواج غير الشرعي كصيغة تمردية على هذا الإلجام العاطفي[30]، أو إلى الخيانة الجنسية كما سيرد ذكره في موضعه.

إلا أن الإنصاف والموضوعية يستدعي القول أن هناك من الشواهد ما يثبت أن المرأة في بعض العائلات الوجيهة كان لها رأيها وموقفها الصارم في اختيار شريك حياتها الذي تحب، فليلى معتقة الوزير أبي بكر بن خطاب (ت 528هـ) "تعرض لخطبتها جماعة لم تجبهم[31]، كما أن زينب النفزاوية لم تستجب لكثير من الأشياخ والأمراء، وتزوجت أربعة أزواج بمحض إرادتها[32]، بل كانت تشترط أن يكون زوجها "ممن يقدر على حكم المغرب برمته"[33]، مفضلة الجاه السياسي على الحب.

الحب بعد الزواج بين الاستمرارية وإكراهات واقع المجتمع المغربي: يبدو من خلال تجميع شتات النصوص والمرويات الخاصة بموضوع الحب الزوجي أن واقع العيش تحت سقف واحد كان يجبر الشريكين- وخاصة المرأة- على البحث بكل الوسائل من أجل خلق بيئة من المودة والمحبة داخل البيت الزوجي، مما يؤكد حضور الحب في الحياة العائلية بمغرب العصر الوسيط.

وفي هذا الصدد، تكشف بعض النوازل الفقهية عن حرص المرأة وسعيها إلى كسب ود زوجها بجميع الطرق والأدوات الممكنة، وفي مقدمتها اللعب بورقة المساعدة المادية للزوج؛ فقد استفتى القاضي عياض قاضي مدينة مراكش الفقيه ابن رشد[34] حول امرأة في سبتة "أمتعت

زوجها في أملاكه حياته"، وعن أخرى "وهبت لزوجها في صحتها نصف صداقها[35]"، كما أن امرأة ثالثة وهبت زوجها رياضا[36]، وأصبحت هبة الكالي للزوج نغمة تتردد في المصادر الفقهية الراجعة للفترة مدار البحث، كما ساهمت الزوجة بمالها أحيانا في شراء منزل للسكن مع زوجها[37]، غير أنها اشترطت مقابل ذلك ألا يتزوج عنها زوجها بزوجة ثانية ولا يتسرى، وإلا رجعت عن هبتها[38]، من ذلك يتضح أن بعض الزوجات سعين إلى كسب محبة أزواجهن عن طريق وهب أموالهن إليهم، وهو ما عبر عنه ابن الحاج بجلاء حين قال: "والمتعارف فيما يوسع النساء به على أزواجهن من أموالهن، إنما يردن بذلك استجلاب مودتهم واستدرار صحبتهم وجميل عشرتهم"[39].

وتحمل النصوص السابقة مغزى ودلالة عن تحكم العوامل الاقتصادية في صياغة علاقات الحب والانسجام بين الزوجين إذ يلاحظ- كما سنبين في موضعه- أن النزاعات الزوجية انتشرت في أوساط العامة أكثر من أوساط الخاصة وفئات الأعيان بسبب المشاكل المادية، لكن دون تعميم هذا الحكم، لأن البادسي[40] زودنا بنص حول متصوف فقير عاش حياة وديعة ومنسجمة مع زوجته، فكان يساعدها في ترتيب شؤون البيت، وفي المنحى نفسه، تصور إحدى قصائد ابن حمديس[41]، نجاح الحياة الزوجية بين ابنته وبعلها، مع تفسير سبب ذلك بالخلق الحميد للزوج ، وهو ما يعكسه قوله:

وأنكحتها مـــن بعد صدق حمدته   كريما فلم تذمم معاشرة البعل

كما أن قصائد الرثاء التي نظمها شعراء عاشوا في الفترة مدار البحث تميط اللثام عما كان يكنه هؤلاء من محبة وعطف لزوجاتهم[42]، وتتجلى أبرز مظاهر المحبة بين الزوجين من خلال إحدى النوازل الواردة حول الأميرة المرابطية الحرة بنت تاشفين التي أقسمت بعد وفاة زوجها ألا تعود إلى دار الإمارة التي كانت تجمعهما، كتعبير عن حزنها العميق وجرحها الغائر الذي حفرت أخدوده وفاة زوجها[43]، ورغم أن زواج زينب النفزاوية بيوسف بن تاشفين جاء نتيجة حسابات سياسية في بداية الأمر، فإن توهج الحب بين الطرفين لم تخمده المشاغل السياسية حتى أن أحد المؤرخين[44] ذكر عن زينب أنها "كانت أحب ما لديه"، علما أنها كانت قد مهدت له السلطة وأمدته بالأموال اللازمة لبناء دولته[45]، وهو ما زاد من تمتين جدار المحبة بينهما.

مقابل هذه الإجراءات العملية الواقعية، تميزت سلوكات بعض النساء- على قلتهن- باللجوء إلى أشكال من الممارسات الغيبية كالسحر من أجل كسب محبة أزواجهن وإيجاد أزواج

يحبوهن رغم أنفهم، ولا غرو فقد ورد في فتوى أحد فقهاء المغرب حكم حول "من يشتغل بضرب الخط وغيره من أنواع الكهانة"[46]، كما تتضمن ذات الفتوى ما يفيد شيوع ما يعرف بكتاب المحبة والبغض، ومعالجة عقدة "ربط العروس" بالسحر، فاختلف العلماء حول ما إذا كان ذلك يعد سحرا أم لا، وتضاربت آراؤهم بين الإجازة والمنع والتحريم، وإن كان بعضهم اعتبروا أن الادعاء بحل تلك العقدة مجرد خدعة يتوخى فاعلوها "خدع الضعفاء لأكل أموالهم"[47].

ومن الراجح أيضا أن يكون للمرأة العازبة والعانس قبل دخولها بيت الزوجية ضلع في ممارسة أعمال سحرية لكسب زوج، فقد ذكر ابن خلدون أن النساء العازبات هن الأكثر تعاطيا للسحر، ورغم أنه لم يرو تفاصيل حول طريقة أعمالهن السحرية، فإنه أشار إلى طريقة استجلاب الأرواح إذ يقول بهذا الخصوص: "ولهم على استجلاب روحانية ما يشاءون من الكواكب، فإذا استولوا عليه، وتكنفوا بتلك الروحانية، تصرفوا منها في الأكوان بما شاءوا"[48]. وسواء كان مصدر الحب طبيعيا أو "حصل" نتيجة الشعوذة والسحر، فإن صعوبات الحياة وإكراهات الواقع المعيشي والنفسي جعل حياة الحب الزوجية تعرف بعض الانكسارات التي سكتت المصادر عن ذكر أسبابها أحيانا، بينما أزاحت الستار عن حوافزها المادية أحيانا أخرى، وقد تمظهرت في ثلاث صور من النزاعات الزوجية التي أبانت عن هشاشة قاعدة الحب الذي انبنت عليه وتتمثل في الالتجاء إلى القضاء والضرب والجرح، والهروب، أما الطلاق فكان آخر حل يملكه الزوجان لوضع نهاية لمسار حبهما.

بخصوص الصورة الأولى، أورد الأصفهاني[49] وغيره[50] أن القاضي ابن حمدين عقد جلسة لرجل أسود وامرأة بيضاء حضرا معا ليحكم بينهما في خصومة لم يفصح النص عن أسبابها، ويبدو أن الالتجاء للقضاء لم يكن يتم إلا بعد نفاذ صبر الزوجين بفعل المشاكل الحادة التي وصلت إلى حد الضرب العنيف، وهي صورة ثانية من مظاهر توتر العلاقات الزوجية. ولاغرو فإن إحدى الروايات المنقبية تشير إلى امرأة اشتكت للمتصوف أبي العباس السبتي أذى زوجها واعتياده على ضربها باستمرار إلى درجة أنها كانت "تريد إلقاء نفسها في البئر"[51]، وهي محاولة انتحارية تكشف عن فشل الحب في العلاقات الزوجية. وتحدثت إحدى النوازل عن امرأة أشهدت في صحة من عقلها وذهنها وهي مضطجعة على الفراش تشكو ألم ست جراحات من جسدها أن زوجها اعتدى عليها وأصابها بجروح كادت أن تفقدها حياتها[52].

أما بالنسبة للصورة الثالثة، وهو الهروب، فيكشف الحسن الوزان[53] عن إحدى العوائد السائدة في أوساط نساء جبل مرنيسة بشمالي المغرب، فيؤكد أنهن كن يهربن إلى الجبال، ولا يجدن غضاضة في ترك أولادهن، ويتزوجن من رجال آخرين كلما أصابتهم إهانة من أزواجهن مهما كانت ضئيلة، والضآلة التي يتحدث عنها النص هنا ثم الزواج برجل آخر بدل الأول، تعبر أيضا عن هشاشة الحب الزوجي في بعض الأسر المغربية.

ويمكن التمييز بين نوعين من المشاكل العاطفية التي عرفتها الحياة الزوجية حسب المسؤولية التي يتحملها الرجل أو المرأة.

فبالنسبة للتجاوزات العاطفية التي كان للمرأة فيها ضلع واسع، أول ما يسترعي الانتباه مسألة نفور المرأة من زوجها أحيانا، وهو ما تؤكده رواية للبكري، ولو أن هذه الرواية تصف الفتور العاطفي للزوجة تجاه زوجها دون تفسير أسبابه، فعندما سألها أهلها عن أسباب عدم حبها لزوجها ونفورها منه أجابت بقولها: "أني أكرهه، وأبغض قربه، وأحب بعده[54]"، وهو تعبير صريح وصل سقفه إلى أعلى مستويات نفي الحب والخروج من دائرته.

يضاف إلى هذا العامل السيكولوجي من جانب الزوجة، عامل آخر يتجلى في عدم انصياعها لأوامر الزوج[55]، وقد انتشرت هذه الظاهرة في أوساط العائلات الأرستقراطية في معظم الحالات، وحسبنا أن حواء زوجة سير بن أبي بكر أبت مرافقة زوجها عند تعيينه في ولاية جديدة إلى أن ألزمها يوسف بن تاشفين بالسير معه[56]، كما أن امرأة أخرى رفضت الرحيل مع زوجها من الأندلس نحو المغرب الأقصى[57]، ولم يكن غريبا أن تنتشر في هذه الأوساط كذلك ظاهرة نشوز المرأة، إذ ذكر ابن الحاج بهذا الخصوص أن "زوجين من ذوي الهيئات وأهل التصاون قاما على الزوجية سنين عددا، ونشأت بينهما ذرية وكانت المرأة تنتشز في خلال ذلك متجنية عليه، فيداخلها بالنساء والقرابة فتعود إليه[58]"، مما يعني وجود دورات في الفتور العاطفي كانت تتخلل مسار حياتهما الزوجية.

وبالمثل كانت بعض الزوجات يكثرن الخروج من المنزل لقضاء أغراضهن، وعندما يعود أزواجهن من السفر لا يجدوهن داخل البيت[59]؛ بل إن بعض النساء مسسن كرامة أزواجهن فتطاولن عليهم بالضرب والإهانة[60]، ولا يخامرنا شك أن مثل هذه السلوكات تعد تعبيرا عن عدم صفاء الحب بين الزوجين، وانعكاسا لتدهور علاقات المودة بينهما.

وقد تكون كثرة مطالب بعض الزوجات لبعولتهن أيضا وراء بعض المطبات التي هزت مسار حياة الحب داخل بيت الزوجية، وهو ما عبرت عنه أمثال العامة[61]، ناهيك عن مشاكل أخرى ذات طابع مادي صرف تمخض عنها نزاع وخصومات نذكر من بينها تفويت الزوجة دارها لأبيها عن طريق ما يعرف بالإمتاع[62]، أو عدم قدرة الزوج على شراء أضحية العيد[63]، أو نفور المرأة من الإقامة في مسكن غير لائق[64]، أو عدم تلبية الزوج لطلبها في توفير خادمة لمساعدتها في شؤون البيت[65]، وهي مشاكل كثيرا ما وجدت التربة الخصبة في أوساط العائلات الفقيرة، وأحيانا كان التهاون في طلب الرزق وتوفير العيش للأسرة من الأسباب التي تؤدي إلى غضب المرأة وتدني منحنى الحب الزوجي في حياتهما الخاصة[66].

ومن المطبات التي عصفت بكيان الحب الزوجي مسألة الخيانة الجنسية، إذ ترد النصوص حول هذه الظاهرة في العصر المرابطي، فابن قزمان يذكر أن نفسه تاقت إلى زوجة جاره فراودها حتى تمكن من وطئها[67]، ويسرد ابن الزيات من جملة كرامات الشيخ الصالح أبي يعزى أن رجلا جاء للتبرك به، "فعلم بقلبه" أنه استغل فرصة غياب أخيه ليواقع زوجته[68].

ويبدو أن الخيانة الزوجية كانت مسألة شائعة لدى النساء اللائي تزوجن رجالا متقدمين في السن ولم يكن يرتبطن بأزواجهن مقدار شعرة من الحب[69]، في هذا السياق ذكر البكري[70] رواية مؤداها أن شيخا تزوج بشابة كلف بها أحد الفتيان، فتواطأت معه على خيانة زوجها، ولا أدل على شيوع الخيانة الزوجية من ورودها ضمن أمثال العامة[71]، مما أسفر أحيانا- في حالة اكتشافها- عن قتل الزوجة[72].

أما بخصوص المشاكل التي يتحمل فيها الزوج فيها مسؤولية هدم العلاقات العاطفية في الحياة الزوجية فقد تعددت، وكانت دوافعها في الغالب الأعم مادية، ونسوق كمثال على ذلك ما ورد عند محمد بن عياض[73]، من أن رجلا التزم في عقد زواجه ألا يضرب زوجته، وألا يأخذ شيئا من مالها بغير إذنها، غير أن الزوج خالف التزامه فمد يده إلى المال حتى أضرّ بها، كما تثبت نوازل أخرى اعتداء الرجل على ما ساقه لامرأته في صداقها[74]، فضلا عما صدر منه أحيانا من قمع وإجحاف في منعها من زيارة أهلها وأقاربها، سواء في أفراحهم أو مأتمهم[75].

والمشكلة التي تتردد كثيرا في نوازل الفترة المرابطية تتجلى في غياب الرجل عن زوجته مدة طويلة حتى اضطرت بعض النساء أن يشترطن في عقود صداقهن ألا يغيب عنهن أزواجهن، وهو ما عبر عنه ابن رشد بـ"شرط المغيب حسبما ينعقد في صداقات الناس

اليوم"[76]، بيد أن الأزواج غالبا ما تغاضوا عن هذا الشرط، مما أدى إلى طول أمد الافتراق بين الزوجين، وبالتالي موت العلاقات العاطفية بينهما، وتصدع العلاقات الزوجية التي وصلت أحيانا إلى حد الانفصال[77].

ومن العوائق التي تسببت في هدم صرح حب علاقات الشريكين أيضا العجز الجنسي من قبل الزوج؛ فقد ورد في إحدى نوازل ابن رشد أن رجلا دخل بامرأته مدة إحدى عشر شهرا دون أن يأتيها، وهي تريد التخلي عنه "لأنها لا تستطيع الصبر عما يلحقه بها الضرر فيما يرغب النساء من أزواجهن"[78]، وهو ما يعني أن ظروف الأمراض القاهرة التي تسبب الضرر لأحد الشريكين تجعل نار حبهما تخبو وتنطفئ لانعدام الأمل في الشفاء، مما يؤكد دور الأمراض والعجز الجنسي خاصة في وأد الحب داخل بيت الزوجية .

جماع القول أن الحب شكل حضورا فاعلا في الحياة الزوجية داخل الأسرة المغربية خلال العصر الوسيط، وهو ما سعت الدراسة إلى الكشف عنه انطلاقا من خبايا النصوص والمؤشرات المشتتة في متون المصنفات الفقهية والأمثال الشعبية وغيرها من المصادر الدفينة. ورغم اختلاف مستويات الفئات الاجتماعية في التعامل مع ظاهرة الحب، فقد حاول البحث تتبع هذه الظاهرة النفسية- الاجتماعية من بداية تكونها إبان فترة الخطوبة، وكذلك من خلال الوقوف على المواصفات الجمالية التي كانت ترفع من وتيرة نمو الحب وتطوره، وصولا إلى بيت الزوجية والوسائل المتبعة للحفاظ على استمراريته من قبل الزوجين معا، بيد أن إكراهات الواقع وصعوبة المعيوش اليومي أحدث هزات وانكسارات أصابت مسار الحب بين الشريكين.

الهوامش:

1- انظر التفاصيل: محمد حسن عبد الله، الحب في التراث العربي، سلسلة عالم المعرفة، 1990- شيماء الصراف، "العشق وكتب العشق عند العرب"، مجلة : Etudes Orientales, no 5- 6, 1990. وانظر أيضا : شادي عبود، العاشقون العرب، موسوعة في 4 أجزاء، كتابنا للنشر. وكذلك : يوسف الشاروني، الحب والصداقة في التراث العربي والدراسات المعاصرة، دار المعارف 1975 .

2- الطاهر مكي، مقدمة دراسته لكتاب طوق الحمامة، دار المعارف، القاهرة 1985 (ط4)، ص 9. انظر أيضا: Mouimine Abdellatif, "Ibn Hazm et l'analyse psychologique", in: La Méditerranée et ses cultures, Editions du Cerf, Paris 1992, p 109.

3- يذهب د. محمود إسماعيل انطلاقا من عدة حجج أن ابن حزم نقل أفكاره عن الحب من كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني، انظر كتابه: الحب عند ابن حزم الأندلسي وابن داود الأصفهاني، هل اقتبس الأول من الثاني؟، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2005، ص 7 . وما بعدها .

4- كتاب الإشارة في تدبير الإمارة ، تحقيق سامي النشار، دار الثقافة، البضاء 1981، ص 68 .

5- ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، تحقيق محمد بنشريفة، الرباط 1984ج8 ق1، ص395 .

6- ابن الزبير : صلة الصلة، قسم : الغرباء، تحقيق بروفنسال، المطبعة الاقتصادية،الرباط 1938 ص131 .

7- الزجالي، ري الأوام، نشره محمد بنشريفة تحت عنوان : أمثال العوام في الأندلس، فاس 1975، ج2 ص 34 وقد أورد مثالا للعامة يدل على رغبة الرجال في الزواج بالمرأة البدينة، ويقول هذا المثل: "الشحم زين ومن فقدت حزين"، مثل رقم 121، وعن رغبة العوام في المرأة الشقراء، يقول مثلهم "أي هو النمش، ثم افتش"، أنظر : ن، م، ص 107.

8- قالت العامة: "أي هي ركبتها، ثم هي ثقبتها" كناية عن القصر البالغ، مثل رقم 122 . انظر نفس المصدر ص 34 .

9- أنظر : ديوان ابن قزمان، تحقيق كورنيطي، المعهد الإسباني – العربي للثقافة، مدريد 1980، ص 18 قصيدة 18 ويقول فيها :

اش ذا العمى يا من ماع عينين   ايك تغري الغلظ والزين

10- البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشره البارون دو سلان، الجزائر 1911، ص169/ابن أبي زرع، روض القرطاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط 1973، ص132.

11- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق بروفنسال وكولان، دار الثقافة، بيروت 1980، ج 4، ص23 – 24

12- نفسه، ص 30.

13- كتاب العبر، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت 1981، ج 6، ص 244

14- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ليبيا-تونس 1981،ق2 م 1، ص345 .

15- مؤلف مجهول : كتاب في الفقه المالكي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 2198، ص47 .

16- ابن الحاج : نوازل ابن الحاج، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ق 55، ص62 .

17- المقتضب من تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي– دار الكتب الإسلامية – الدار العربية الإفريقية، ص216.

18- ابن الحاج، م، س، ص64، 65 .

19- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار، القاهرة 1983، ج23 ص 464 .

20- أنظر ابن الآبار : التكملة لكتاب الصلة، نشر ألفريد بل وابن أبي شنب، الجزائر 1911، ج1، ص27 ..

21- ابن خلدون : كتاب العبر ....م.س، ج6، ص253 .

22- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق بروفنسال دار المكشوف، بيروت 1656 (ط2)، ص413 .

23- علي أدهم، المعتمد بن عباد، القاهرة ــ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر (د.ت) سلسلة أعلام العرب، ص309ــ310ــ عفيفي : المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مصر، شركة فن الطباعة (د.ت) ج3، ص134ــ135.

24- ابن رشد، نوازل ابن رشد، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ق ك 731، ص62 .

25- نوازل ابن الحاج، ص76 .

26- نفسه، ص66ــ67 .

27- ابن زكون : اعتماد الحكام في مسائل الحكام، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ق 413 ص 45ــ ابن عبد الملك : م، س، ج6، ص346 .

28- ابن رشد : م، س، ص 56 .

29- ابن الحاج : م، س، ص73 .

30- نفسه، ص78 .

31- ابن الزبير، م، س، ص566 .

32- ابن خلدون، م.س، ص 244 .

33- ابن عذاري : م، س، ص.18

34- محمد بن عياض، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 4042، ورقة 145 .

35- البرزلي، جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتيين والحكام، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 450 ص89 .

36- المصدر نفسه، ص75 وقد نقل النازلة عن ابن رشد .

37- البرزلي : م، س، ص90 .

38- الجزيري : م، س، ص187 .

39- نوازل ابن الحاج، ص5 .

40- المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أحمد أعراب، ص54 (ترجمة عيسى بن أبي داود ــ ت578 هــ) .

41- ديوان ابن حمديس، تحقيق إحسان عباس، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1960، ص365.

42- أنظر التطيلي، ديوان الأعمى التطيلي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1963، ص71، 73 قصيدة 24 التي قالها في رثاء زوجته أمينة، وانظر أيضا: ابن الزقاق، ديوان لبن الزقاق، تحقيق عفيفة محمود ديراني، دار الثقافة، بيروت،د.ت، ص228 قصيدة 48 التي رثى فيها زوجته، وكذلك ابن سعيد الذي أورد في ترجمة أبي عامر الحمارة قصيدة رثائية في زوجته التي كان يهواها وتدعى زينب: أنظر: رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق غرسية غومس، مدريد 1942، ص93 .

43- ابن رشد، م، س، ص 25 .

44- ابن عذاري : م، س، ص30 .

45- المصدر نفسه، ج4، ص22 .

46- الونشريسي، المعيار المعرب، تحقيق مجموعة من الأساتذة، نشر وزارة الأوقاف المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981، ج 12، ص 55 .

47- نفس المصدر والصفحة.

48- ابن خلدون، م.س، ج6، ص288 .

49- خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق الدسوقي وعبد العظيم، القاهرة 1964، ق4 ج2 ، ص 221 .

50- ابن سعيد، م، س، ص39 .

51- مؤلف مجهول، مناقب الشيخ أبي العباس السبتي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 896، ورقة 102 وجه.

52- البرزلي : م، س، ص 190 - الونشريسي : م، س، ج2 ص 289- 290 .

53- الحسن الوزان : وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، الرباط 1980، ج1، ص260 .

54- المغرب....م.س، ص 186، 187 .

55- ابن المؤقت، تعطير الأنفاس، ص30. وقد ذكر أن رجلا طلب من زوجته أن تصنع طعاما لضيوفه فرفضت .

56- ابن ليمون : لمح السحر، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 1033، ورقة 80 وجه .

57- النباهي : المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1980، ص108 (ترجمة أبو المطرف عبد الرحمن الشعبي ت 499هـ).

58- نوازل ابن الحاج، ص 120.

59- محمد بن عياض : م، س، ورقة 70 ظهر.

60- ابن الزيات، كتاب التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، الدار البيضاء 1984، ص329، ترجمة 164 .

61- قالت العامة: "بع كساك وعمل كداك": الزجالي، م.س، مثل رقم 589، ويقال في مطالب النساء وعدم رفقهن بالأزواج، أنظر كذلك ابن قزمان، رقم 89 .

62- محمد بن عياض، م، س، ورقة 55 وجه - ابن رشد : م، س، ص282 - مؤلف مجهول : كتاب في الفقه...م.س، ص 295

63- ابن الزيات، م، س، ص274 (ترجمة رقم 120) .

64- ابن سعيد : م، س، ص 49 (ترجمة الأصم المرواني) .

65- ابن الزيات : م، س، ص219 ترجمة رقم 77 .

66- أنظر التطيلي : م، س، ص 16 قص 5 .

67- أنظر ديوانه ص 146 زجل 20 .

68- التشوف...م.س، ص 214 .

69- قالت أمثال العامة في هذا الشأن: "إذا أزوج الشيخ لصبي، يفرح صبيان القرية"، مثل رقم 3، أنظر الزجالي : م، س، ج1، ص.244

70- المغرب...م.س، ص184 وما بعدها .

71- قالوا: "بين ذا وذا، زوجها قد جا"، يقال المثل في المرأة التي يدركها زوجها متلبسة بالجريمة، أنظر: الزجالي: م، س، ج1، ص124 .

72- البكري : م، س، ص187 .

73- مذاهب الحكام ورقة 67 وجه .

74- ابن رشد، م، س، ص219 .

75- محمد بن عياض : م، س، ورقة 55 وجه.

76- نوازل ابن رشد ص66 .

77- نفس المصدر والصفحة .

78- نفس المصدر، ص 83.